

وتكنَّ عن القلب بأنه بين الحشا والترائب وتبدد شمل الدمع، كما تبدد شمل أحباب أبي تمام، الذي لا إخاله أحب في حايته أحداً على الإطلاق؟ هذا التأثير الثقافي الحضاري، الذي برز بوضوح في العصر العباسي، والذي ظهرت آثاره في الأساليب، وفي المعاني والأخيلة جميعاً، هو همزة الوصل بين الآداب وبين الفلسفة بمعناها العام الذي يشمل الكلام والمنطق ومصطلحات العلوم، وغير ذلك من كل ما تناولته الترجمة والتعريب من ضروب الثقافات، وقد كان هذا التأثير غامراً، فلمَّا سلم منه أديب في المشرق، وإن تفاوتت حظوظ الأدباء منها؛ على حين أنه لم يكن للأندلس منه نصيب حينئذ، لخضوعها لسلطان الفقهاء، الدين حرموا الفلسفة وما إليها تحريماً باتاً، لا هوادة فيه، ولا خلاص منه

وأبو تمام والمتنبي أشهر من تأثروا في أشعارهم بالفلسفة، حتى مضى فيهم قول حكيم المعرة: أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري، وأبرز مظاهر هذا التأثير تبدو في حكمهم التي انتقلوا بها من التجارب الفطرية، مَدْرَجَها ومرباها، إلى النظريات العلمية، والحقائق الفلسفية؛ حتى قيل إن المتنبي نقل حكم أرسطو ونظمها شعراً. والدراس لأشعار العباسيين دراسة الناقد المثبت، يدرك في سهولة ووضوح معالم الثقافة المجتلبة في نواحيها المختلفة، كما يدرك ما أفاد الأدب من هذه الثقافة من محاسن، وما جرت عليه من ضعف.

وإذا أخذنا (البحتري) طَرَفًا، وهذا العَلَمُ فيمن لم يتأثروا بالفلسفة لنشأته البدوية، وأخذنا صريع الغواني وأبا تمام والمتنبي وأبا العلاء، مثلاً، طرفاً آخر، سهل الأمر جداً في التمييز بين شعر الملكة البدوية المطبوعة، وبين شعر الثقافة المصنوعة، وإني لأتخيل البحتري يثور في وجوه هؤلاء الشعراء المتعالمين من معاصريه، صائحاً:

كلفتمونا حدود منطقتكم ***** في الشعر يغني عن صدقه كذُّبه°

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمن ***** طق، ما نهجه، وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته ***** وليس بالهزر طوَّلت خطبه